شخصيات عراقية

باسل محمد عبد الكريم

شخصيات عراقية

المؤلف: باسل محمد عبد الكريم

ISPN **978-9933 -764-09-0**

الطبعة الأولى /2022/



دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيـع

سورية - دمشق- الحلبوني

سورية - السويداء - مقابل المشفى الوطني

تلفاكس: 0096316211260

دار كيوان - للطباعة والنشر والتوزيـع facebook

kiwan.publishing@gmail.com

www.kiwanhouse.com

شخصيات عراقية

باسل محمد عبد الكريم

تقديم

كيف أكتبُ مقدمةً عن شخوص عاصرتها وتلمست مشاعرها و أحزانها واصطبارها على الذي يجيء بعد كل المعاناة والاحتمال غير الإنساني، بعد كل الذي أخذ من جرفها البشري وأغلقَ كل مصبات لوعتها قسراً.

إنهم مهمشو لحظتنا الغادرة والتي يأنف مثقفو الصالونات الجديدة عن الحديث عنهم.

لكنهم ذخيرتنا وإرثنا النقي والذي من خلالهم نستلهمُ صمودنا ضد كل أشكال القباحة والتردي الفكري والجمالي والأخلاقي.

إنهم دفاعاتنا الأخيرة عن عراقنا الجميل.

ولا بد لي أن أتوجه بالشكر والعرفان لإدارة جريدة الأخبار البصرية لمنحها لنا المساحة الواسعة لنشر هذه الكتابات ما بعد 2003 .

خالد أحمد زكي : شهيد الغموكه

لم يدر بخلد الضابط العثماني محمد أمين الحسيني أنَّ حفيده خالدًا سيقود بعد أكثر من نصف قرن انتفاضةً مسلحةً في هور «الغموكه» جنوب العراق ضد النظام البرجوازي المتهرئ، ويشكل انعطافًا حاسمًا في مسيرة الحركة الشيوعية في العراق، خالد أحمد زكي الذي وُصفَ بكونه مغامرًا يساريًّا برجوازيًّا، الذي تجاهلته الحركة الشيوعية العراقية ردحًا من الزمن بوصفه مرتدًّا وهرطوقيًّا على الشيوعية في العراق وأرثذوكسيتها المهيمنة.

وُلد عام 1935 وتعرَّف على الشيوعية في أثناء كونه طالبًا في إعدادية الكوت عام 1952 متأثرًا بالشيوعي حسن العذاري. واستُشهد في 3/6/1968. ثلاثة وثلاثون عامًا فقط هي حياة قصيرة بقياسات الزمن غير أنَّها مفعمة بالوقائع والأحداث والانعطافات الحادة لتلك الشخصية التي مرَّت كالشهاب في سماء العراق الملتهبة.

حدثني غازي أحمد زكي شقيق الشهيد خالد: شاهد مآسي الفلاحين في ريف العراق الجنوبي بداية الخمسينيات أثناء زيارته مع والدنا «مساح الري» لتلك المناطق، وتنبه إلى واقعهم المرير، وقد سافر بعد ذلك إلى لندن عام 1955 على نفقة والدنا المرحوم لدراسة الهندسة.

.....

سليل عائلة تعود أصولها إلى مدينة النجف من السادة الأشراف الحسينيين، من الذين كانت لهم صولة زمن العصملي العثماني سرعان ما بدَّدتها مدنية والدهم مساح الري الميَّال إلى اللهو والمنفتح على الحياة، الذي طبع بميسمه العلماني عائلة أحمد زكي الحسيني ليخرج من أردانها ذلك المكافح العنيد والجيفاري المشبع بروحية وأفكار التجرِبة الكوبية ومدارس الكفاح المسلح في أمريكا اللاتينية وبلدان آسيا الشمالية، كان قد زار فيتنام الشمالية وقاتل مع ثوار الفيتكونغ، كما زار كوبا بعد انتصار الثورة فيها، وكان قريبًا من رموزها الثورية التاريخية كاسترو وجيفارا، يمتلئ بتجربتهم وعنفوانهم الذي تشربه من خلال تلك اللقاءات.

كان طموحه الثوري قد بدأ يتبلور باتجاه خوض غمار تجرِبةٍ لها سماتٌ خاصةٌ مستفادة من دروس وتجارب البؤر الثورية الأخرى في العالم، وكان يحلِّق بعيدًا باتجاه أهوار الجنوب العراقي الخامل بانتظار ...!

يقول غازي أحمد زكي: «في عام 1964 زرته في لندن، كان شعلة متقدة من الحيوية والنشاط، يقود جمعية الطلبة العراقيين في لندن مسؤولًا عن سكرتارية الشرق الأوسط لمنظمة رسل الدولية للسلام، زرت معه مقرَّ الفيلسوف المشهور برتراند رسل وكان قد تجاوز 85 عامًا من عمره إلا أنَّه كان حيويًّا ونشطًا، سألنا عن السجناء السياسيين في العراق وعن عددهم وعن السجون العراقية، قلت له هناك المئات من سجناء الرأي في سجون الحلة وبعقوبة والكوت ونقرة السلمان وغيرها».

كانت منظمة رسل للسلام قد نظَّمت حملةً لإطلاق سراح السجناء السياسيين العراقيين في منتصف الستينيات (هذا ما أفادني به صديقنا الكبير أبو ذر عقيل الخزاعي)، حيث زار وفدٌ من المنظمة العراق (غير أن خالد أحمد زكي لم يكن ضمن الوفد لكونه مطلوبًا للنظام آنذاك، وأُطلقَ سراح عدد من السجناء وكان منهم المناضل والشاعر الشعبي (أبو سرحان) بوصفه أصغر سجين سياسي، هذا الشاعر الرائع الذي هاجر من العراق إلى لبنان؛ بسبب تعسُّف النظام الفاشي وملاحقته للأصوات الشريفة نهاية السبعينيات، هذا الشاعر اختفى إبَّان الحرب الأهلية اللبنانية وفي ظروفٍ مجهولةٍ بداية الثمانينيات من القرن المنصرم)، في عام 1965 يقول غازي: (زرته مرةً ثانيةً في لندن وقد أخبرني أنَّ السياسي الكردي جلال الطالباني قد زاره والتقى به أثناء مجيئه للندن، وفي عام 1966 وقبل مجيئه لبغداد كان قد التقى عزيز الحاج في براغ وتحدَّث معه عن التذمُّر الحاصل بين صفوف الشيوعيين العراقيين في لندن ودول أوروبا من السياسة اليمينية والإصلاحية للحزب، لكن عزيز لم يتجاوب معه).

في ذلك الوقت كان قادة الحزب الشيوعي العراقي يعملون على حلِّ تنظيمات الحزب وتفكيك أطره ليتصدَّر الزفة الخائبة للاتحاد الاشتراكي العربي – فرع العراق، على غرار التجرِبة الناصرية التي وأدت وفكَّكت الحركة الماركسية في مصر وجعلتها ذيولًا انتهازيةً لمزاجية جمال عبد الناصر في تقلباته التاريخية من حركة الإخوان المسلمين إلى المدِّ القومي الشوفيني إلى محاولة الاقتراب من الماركسية عبر نماذجها الخائبة والانتهازية بعد استشهاد شهدي عطية الشافعي والمعاناة القاسية للبقية الباقية من شيوعيي مصر في سجون عبد الناصر الوحشية وانزواء الآخرين يأسًا وإحباطًا.

....

يقول غازي: «في نهاية عام 1966 وقبل مجيئه إلى بغداد أودع أوراقه ومقالاته وكتبه عند أحد قياديي الحزب الشيوعي العراقي الموجودين في براغ آنذاك، غير أنَّ الأخيرَ وبعد سنين ادَّعى أنَّ أوراق الشهيد خالد قد اختفت». ويبدو أنَّ اختفاءَها جاء منسجمًا مع سياسة قادة الحزب آنذاك ...! (هل نستطيع العثور على هذه الأوراق)؟

....

لم يكن متزوجًا غير أنَّه لم يكن زاهدًا في علاقته بالمرأة، كانت رغبته في الزواج من عراقية بعد أن يتحقَّق الحلم الشيوعي الطوباوي...!

....

بعد أكثر من 35 عامًا ومن منتجعه الباريسي وهو يسجِّل مذكراته يمرُّ (عزيز الحاج) وبغير اكتراث على هذه التجرِبة الثورية مرور غير الكرام، أمَّا خالد أحمد زكي؛ ففي أتون محترقه الأهواري مسجل شرف المبادرة والمبدأ والشهادة للقيم التي آمن بها، مناضل من الطراز الفريد الذي كتب اسمه في سجل الشيوعيين الأفذاذ والشرفاء بعد تلك القائمة الطويلة التي تبدأ ولا تنتهي من الذين قدَّموا حياتهم ثمنًا على مذبح الحرية.[1]

....

(1) مقالة نشرها الكاتب بتاريخ 4/ حزيران/2005 في جريدة الأخبار البصرية

ثم أُعيد نشرها في منتدى الحوار المتمدن بتاريخ 27/ أيلول/ 2019

محطات من ذاكرة عقيل الخزاعي (أبو ذر)
«الجزء الأول»

بقلم: باسل محمد عبد الكريم

طوال سنوات الفاشيَّة البغيضة التي خيَّمت على العراق لأكثر من ثلاثة عقود، كان جنديًا مثابرًا مجهولًا، يتحرك بين الآخرين وفي قاع المدينة، يتحرَّى خفاياها ونَسغها السري، يديم الصلة بالناس الطيبين، يمرِّر لهم زادهم الذي لم ينقطع طوال تلك السنين، حاملًا (عليجته) ومعتمرًا سدارته (الفيصلية) لا يثنيه شتاؤنا القارس البرودة ولا حرارة صيفنا القائظ ولا عيون المتلصصين ولا ذيول الأجهزة الأمنية العفنة، يتسربل بهدوئه ولثغته الأليفة وعنفوانه الذي يتقاطع مع طبيعة الرجل المصاب بانسداد بعض شرايين القلب واستشراء داء السكري اللعين في جسده الذي يدبُّ في طرقات المدينة المنهكة والمذعورة طوال عهود، قريبا من نسيجها الحي وحياتها التي لا تتوقف، مقاهيها جوامعها، ونادرا ما أفراحها، قريبًا من مناسبات الجميع. مثقفوها وفنانوها وصعاليكها ومترفوها، سياسيون منزوون في (درابينها) الموحلة، يساريون وإسلاميون، صابئة مندائيون ومسيحيون،

قرَّروا البقاء في الداخل ولم يهاجروا، قريبًا منهم جميعا إلا أنَّ خطوته لوحده..!! ذاك هو أبو ذر الخزاعي.

يمتلك ثروة لا يطالها أحد، ألا وهي طيبته وعطاؤه الذي لا ينضب، يقتطع من دخله المتواضع ليطبع منشوراً للمعارضة الوطنية أو يروِّج لمذكرات أقطابها وعلى حسابه الخاص، كان نسغ اليسار في الشارع العراقي المغيَّب والمهمَّش، كان حزبًا لوحده، كلُّ أدبيَّات المعارضة الوطنية ومنشوراتها ولا سيَّما اليسارية خرجت من معطفه طوال أكثر من عشرينَ عامًا خلت تحت ظلال الفاشست، لعلَّه أشهر مروِّج لثقافة الاستنساخ في العراق، غير آبهٍ بمخاطر هذه المغامرة، في الوقت الذي انقطعت فيه أغلب الحركات السياسيَّة المعارضة في الخارج عن التواصل مع الداخل، الذي يئنُّ تحت كابوس الفاشية، لكنَّ أفرادًا قلائل في الداخل اشتغلوا على هذا الغياب وحوَّلوه إلى تواصل، فكانت صحف المعارضة وأدبيَّاتها في متناول الطيبين الخائفين المنزوين في ثنايا الوطن المحتل، نعم المحتل، من قبائل البدو الهمجية، إنَّهم مغول العصر الحديث...!

ابنُ محلَّة المنصورية الكرخية جوار قبر أبي المغيث الحلَّاج المتصوِّف البغدادي الشهيد، كان والده صديقًا للحركة الوطنية، وقد التقى القائد الشيوعي فهد عن طريق ابن عمٍّ فهد وصديقه إلياس نانو في محلَّة الحاج فتحي في شارع الرشيد بداية الأربعينيَّات من القرن المنصرم.

عمل في اتحاد الطلبة العام ومرشَّحًا عماليًّا على قائمة كفاح العمَّال، حيث كان أصغر مرشحٍ فيها، تلك القائمة العمَّالية

التي تُمثِّل القيادة المركزيَّة للحزب الشيوعيِّ العراقيِّ والحركة الاشتراكيَّة العربيَّة أواخر الستينيَّات.

يقول أبو ذر: «بعد استشهاد خالد أحمد زكي وانهيار عزيز الحاج وضرب قواعد القيادة المركزية، ارتأت كوكبةٌ من قواعد وكوادر القيادة العمل ضمن صفوف المقاومة الفلسطينية، كان ذلك أواخر عام 1969، أي قبل حوادث أيلول الأسود بعدَّة شهور، ساهمنا مع المقاومة في أغوار الأردن وفي إربد التي كانت مسيَّجة بالألغام وأثناء مجزرة أيلول الأسود كان من المفترض أن يقدِّم الجيش العراقي الذي كان موجودًا خارج إربد إسنادًا للمقاومة الفلسطينيَّة، لكنَّه انسحب وخذل المقاومةَ، غير أنَّ اللواء (70) السوري بقيادة عزت جديد هو الذي بادر لإنقاذ الموقف في إربد، لكن توقف الإمداد، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الجيشَ الأردنيَّ لم يستطع دخول إربد..».

حدَّثني عقيل مرة، قال: «إنَّه في أمسيةٍ من أماسي تشرين الأوَّل عام 1971 ونحن في أحراش جرش في الأردن، وقد حُوصرت المقاومة هناك بعد أحداث أيلول الأسود وما فعلته قوات البدو (الهجانة) الأردنية من ذبح ومجازر بحقِّ المقاومة الفلسطينيَّة، سلمت الرفيق أبا علي مصطفى (وحينها كان نائب الأمين العام للجبهة الشعبيَّة لتحرير فلسطين) كتابًا عزيزًا عليَّ وهو (متى يطلع الفجر يا رفيق) لم ينم تلك الليلة حتى أتمَّه مطلع الصباح).

ساهمَ في سلسلة الإضرابات العمَّالية في أربد بين صفوف العمَّال الذين كانوا يعيشون أوضاعًا صعبةً ومترديةً على

المستوى المعيشي، حينها كان مسؤول المكتب العراقي علي حسين العبادي.

قاد إضرابات عمَّال الخدمات البلديَّة في أربد، الذين كانوا يعملون بالسخرة لدى بعض القيادات الفلسطينية المتنفذة، واستطاع الإضراب أن يحقِّق بعض مطالبهم، وكان ذلك بمساندة رفيق دربه رياض البكري.

يقول أبو ذر: «بعد أن نجح الإضراب قمنا بتشكيل لجنةٍ نقابيةٍ من عمَّال الخدمات البلدية عن طريق الانتخاب ورشح النقابي العمالي أبو فضيل ليكون سكرتيرًا لها وهو من الكادحين الفلسطينيين الذين يسكنون أكواخ الصفيح الفقيرة على مشارف المدينة، قال لهم (الفكرة بوصلة، والجيش لا يتحرَّك دون قائد)، وردَّدنا الشعار (وحدتنا وحدة عمَّال لا رجعية ولا استغلال)، هذا الشعار الذي صاغه رياض البكري، وقد نشرت مجلَّة (الهدف) تغطيةً لهذا الإضراب الناجح، وحينما علم بذلك الرفيق جورج حبش قال: (هذا عمل الشيوعيين....!!).

***

يقول أبو ذر: «عملنا في البداية مع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وحينما صاغت الجبهة الديمقراطية نظامها الداخلي في التحوُّل إلى حزبٍ كان من ضمن بنود النظام الداخلي (لا يمنح غير الفلسطينيين عضوية كاملة في الحزب) مِمَّا أدَّى ذلك إلى خروجنا من (الديمقراطية) والذهاب إلى (الشعبية)، وكان انعكاسًا للانشقاق الذي حصل في صفوف القيادة المركزية

في العراق بعد انهيار عزيز الحاج، كان الانشقاق بين مجموعة (مصلح مصطفى) التي انضمَّت إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومجموعة (إبراهيم علاوي – نجم) التي بقيت مع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين».

(كان معي من رفاق القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي الشاعر رياض البكري (نضال)، رديف الداغستاني (أبو رائد)، مطر لازم (أبو الفهود) والفقيد علي سهر (أبو مصطفى) الذي عذَّبه جلاوزة النظام البعثي السابق وفقد عقله إلى أن مات، وعبد الله شهواز وصبيح راهي وعامر الداغستاني (أبو حازم) ويعقوب زامل (أبو مهران) والشهيد محمد كريم ورشيد عبود (أبو العيس)، وكذلك كان معنا سعدون الهاشمي (سمير) وشقيقه الشهيد سامي الهاشمي والفنان بيمان محمد سعيد (أبو أوراس) وخليل العاني من العمارة، والشهيد محسن حمادي الربيعي (أبو هاشم) من عمَّال النسيج في الحلة وانخرط في صفوف الحزب الشيوعي منذ فترة الخمسينيات واستُشهد عند حاجز كتائبي في منطقة الكحالة في بيروت عام 1975م، وخليل إبراهيم الغزالي (سعود) وكان حينها في الصف المنتهي من الكلية الطبية في بغداد وبقي في الجبهة الديمقراطية بخلاف مجموعتنا التي انتقلت إلى الشعبية).

يقول الشاعر خلدون جاويد: «كنت في نهاية 1969 أو بداية 1970 لا أتذكر، قد رثيت الدكتور مصطفى جواد بقصيدة في قاعة ساطع الحصري في كلية التربية، سمع بصداها رياض البكري فقصدني إلى الكلية .. كان معه (أبو شاكر) رديف

الداغستاني و(عقيل فلثفة) (أبو ذر فيما بعد)، الذي كان ينطق السين ثاءً وهو ديناصور لسان حاله يقول: (إذا أحببتَ العالم فيجب أن تطَّلعَ على ما عنده وتتعرَّف على أجزائه)، كان هو الآخر على درجةٍ من الجدية بحيث لا مجالَ معها للطرافة القديمة التي كنت أوجهها له، وهي بالحقيقة بيتان جميلان للعباس بن الأحنف:

(وشادن قلت له ما أسمك

فقال لي باللثغ: عباث.

فصرت من لثغته ألثغا

أقول أين الطاث والكاث)[2]

وهو يتحدَّث عن لقائه الأخير بالشاعر الشهيد رياض البكري بعد عودته من المقاومة الفلسطينية، يقول الشاعر خلدون جاويد: (حدثني عن استشهاد مطر لازم (أبو الفهود) في حرب النضال، عن بطولة (عقيل فلثفة) الذي كان يقاتل حتى انسحاب آخر رفيقٍ من رفاقه، يشهد على ذلك قادة فلسطينيون كبار حينما كانوا يضطرُّون إلى الانسحاب وينتظرون من يتعوق من رفاقهم، كان يبرز لهم عقيل خارجًا من سحابةٍ دخانيةٍ حاملًا رشاشته ملتحقا بهم ... كان لا يريد أن ينسحب...) عن الحوار المتمدن العدد 1189 في 6/5/2005.[3]

---

(2) عن الحوار المتمدن العدد 1189 في 6/5/2005م.

(3) الدراسة نُشرت في صحيفة الأخبار البصرية بتاريخ 10/أيلول/2005، العدد 105 إلى كلِّ القرَّاء والأصدقاء، إنَّها شهادة للتاريخ لها ما لها وعليها ما عليها.

محطات من ذاكرة عقيل الخزاعي (أبو ذر)
«الجزء الثاني»

الرجوع من الأردن أواخر عام 1971م.

بدأ (عامر الداغستاني) في لمِّ الشتات (القيادة المركزية) ومحاولةِ بناء تنظيمٍ جديدٍ لها بالتعاون مع عقيل الخزاعي ورشيد إسماعيل في بغداد. و(عامر) من المناضلين الشيوعيين الذين انخرطوا في العمل السياسي خلال فترة الخمسينيَّات ومن العناصر الثوريَّة، داخل الحزب الشيوعيِّ العراقيِّ وضمن (خط الطوارئ) الذي شكَّله الحزب أواخر عام 1962م، وفي عام 1963 كان من ضمن قيادة المقاومة، التي انطلقت من (عكد الأكراد) في شارع الكفاح، ضدَّ الانقلابيِّين الفاشيست مع الشهيد محمد صالح العبلي، اعتُقل في سجن نقرة السلمان، وبعد أن أُطلق سراحه أواخر الستينيَّات، أصبح أحد مسؤولي (القيادة المركزية) وكان في حينها موظَّفًا في مصلحة التمور في البصرة نهاية عام 1971م، أصدر بيانًا باسم (أنصار القيادة المركزيَّة) يهاجم النظامَ الدكتاتوريَّ

البعثيّ، وقد وُزِّع هذا البيان حينها في بيروت ووزَّعه رياض البكري وكامل السعداوي.

أمَّا في العمارة؛ فقد استطاع رشيد إسماعيل أن يؤسِّس لنواة تنظيم تتكوَّن من علي حسين ثويني ومصباح المدرس ونصير جاسم، وبعد نقله (رشيد إسماعيل) إلى الفلوجة استطاع أن يبني لعلاقاتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ في الفلوجة والرمادي وكان من ضمن تلك العلاقات فوزي الجميلي والمعلِّم ربيع النايل.

أمَّا في البصرة؛ فكانت هناك نواة للتنظيم تتكوَّن من الفقيد علي عزيز الليث وشقيقه محمود عزيز الليث.

وفي بغداد، تجلَّى نشاط أنصار القيادة المركزيَّة بوقوفهم ضدَّ حلِّ التنظيمات المهنيَّة ولا سيَّما اتحاد الطلبة العام أواخر السبعينيَّات عن طريق الإضراب الطلَّابيِّ الواسع في ثانوية الكفاح، في منطقة بني سعيد، كان المحرِّض على الإضراب أحد شباب التنظيم سعيد إسماعيل بالتنسيق مع عامر الداغستاني، حيث فُصل الطالب سعيد لمدَّة سنة، وكان لموقف الأستاذ علي الشوك (حينها كان مدرِّسًا في الثانوية المذكورة أعلاه) أثرٌ إيجابيٌّ في عودته إلى الدراسة.

وحدة القاعدة ...

يتنفَّس أبو ذر بعمقٍ متمعنًا تلك الصور القديمة، محاولًا أن يلملمَ بقاياها، آملًا أن تقرأها أجيال العراق الجديد، يقول: (بدأنا التنسيق مع (جماعة) (وحدة القاعدة) في العام 1975م، عن طريق رياض البكري، وقد نشط عملهم في شمال العراق وبيروت

وسوريا، وهم مجموعة من الشباب الثوري المنشق على قيادة إبراهيم علاوي وعملوا باسم (القيادة المركزية – وحدة القاعدة) ومنهم (سامي شورش ”كاكا أنور“، عبد الحسين الهنداوي، وفاضل محمد رسول، عادل عبد المهدي المنتفكي، وآخرون...). كانت لهم قاعدة في شمال العراق حيث كان (كاكا أنور) يقوم بزيارات متعدِّدة لبغداد؛ للقاء (عامر الداغستاني) للتنسيق حول آليات العمل وتوزيع جريدة (وحدة القاعدة) وصولًا إلى تشكيل لجنةٍ مشتركةٍ تتألَّف من ممثلٍ لكلا المجموعتين، غير أنَّ اعتقال رياض البكري عام 1977 حال دون استمرار العمل معهم، حيث توقَّف نشاط (وحدة القاعدة) في شمال العراق على أثر اعتقال أفرادٍ منهم في السليمانية، ومرَّة ثانية أواخر السبعينيَّات سافر عامر الداغستاني إلى خارج العراق محاولًا الاتصال بمجموعة (وحدة القاعدة)، إلَّا أنَّهم لم يحاولوا الاتصال بتنظيم الداخل..!!

يقول سامي شورش: (بعد الانهيار لم نرجع للعراق أنا ومجموعة من رفاق القيادة المركزية، بل فضَّلنا الذهاب سرًّا إلى إيران ومن هناك انطلقنا نحو سوريا ثمَّ إلى لبنان حيث أنشأنا علاقاتٍ وطيدةً مع بعض المنظِّمات الفلسطينية، وكان فاضل محمود رسول سبقنا بعام إلى لبنان، ونجح في مدِّ الجسور مع مجاميع يساريَّة وثوريَّة لبنانيَّة، لم تثمر الجهود التي بُذلت في سوريا ولبنان عن إعادة اللحمة والحياة إلى القيادة المركزية، وكان في مقدمة المجموعة التي سخَّرت كلَّ وقتها لهذا الهدف عادل السيد عبد المهدي (حاليًّا عضو في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية العراقية) وفاضل محمود رسول وعبد الحسين الهنداوي (يعمل حاليًّا في منظَّمة حقوق الإنسان في هاييتي)

ويحيى العراقي (الذي أُعدم في بغداد عام 1978م بعد عودته سرًّا إليها في مهمَّة حزبية) (والحقيقة أنَّه قُتل في بيروت عام 1980 على أيدي المخابرات العراقية) وعبد الحسين الموسوي (حاليًّا لاجئ في ألمانيا)، وآخرون أصبحوا فيما بعد مقيمين في لندن وبرلين).[4]

أمَّا عادل مراد؛ فيذكر في جريدة الاتحاد، الجريدة المركزية للاتحاد الوطني الكردستاني وحول الموضوع نفسه ما يلي: (تشكَّلت هذه القيادة (وحدة القاعدة) بعد انهيار الحركة الكرديَّة في آذار 1975 إثر اتفاقية الجزائر، حيث شكَّل مجموعة من الكوادر الشيوعيَّة القاعديَّة تنظيمًا جديدًا بالضدِّ من قيادة إبراهيم علَّاوي (نجم). في البداية أعلنوا تشكيل (لجنة الكادر للبناء والتنظيم)، وأصدروا بيانًا يتضمَّن برنامجهم لتنشيط القيادة المركزيَّة، وبعد فترة أصدروا جريدةً سياسيَّةً عالية المستوى سياسيًّا وفكريًّا، وكان على رأس التنظيم عادل عبد المهدي، حسين الهنداوي، فاضل ملَّا محمود، حازم النعيمي، سامي شورش، رياض البكري (الذي استُشهد تحت التعذيب لاحقًا في بغداد) محمد الهنداوي، حسين الموسوي (صبري) كمال حمه ره ش (أكرم)، حاجي (هقاني)، منير الجلبي).

واستمرَّ عمل القيادة خلال عقد الثمانينيَّات حتَّى منتصف التسعينيَّات، وللظروف الأمنيَّة القاهرة توقَّف عملُها.

غير أنَّ أبا ذر ما زال يسعى في دروبها الموحِشة والمفخَّخة والمزروعة بالقتلة وعصابات المافيا الجُدد، لا زال في دروبها

(4) عن مجلة أبواب بعنوان صفحة من تاريخ اليسار الكردي العراقي، بقلم: سامي شورش.

يحثُّ الخطى غير آبهٍ بتصلُّب الشرايين وآفة السكَّري اللعينة وعوامل الاندثار في عمرٍ تتساقط أوراقه الذابلات في زمنٍ تشابكت فيه المواقع والخنادق وحلَّقت فيه (الخفافيش) عاليًا في سماء مفتوحةٍ على كلِّ الاحتمالات.[5]

(5) الدراسة نُشرت في صحيفة الأخبار البصرية بتاريخ 10/أيلول/2005، العدد 105

طائر الغرَّاف الحزين ...
إلى عدنان سلمان[6] حيًّا

(طلب الملك لير من الآلهة أن تخفِّف من قسوة الدنيا. غير أنَّ الآلهة بقيت صامتةً، وتبيَّن أنَّها لا تقلُّ قسوةً عن الطبيعة والتاريـخ)

يان كوت - أحد نقَّاد شكسبير الكبار.

يتهادى نهر الغرَّاف حزينًا، بعيدًا عن بيوت الطين، تلك التي تغفو على ضفافه، وهو يرنو إلى مدينة (الرفاعي) ببيوتها المتداعية، وأزقَّتها المتربة، وبقايا نخيلها المتناثر، وناسها المذعورين.

تبدو مدينةً مهجورةً، خرجت من أُتون الحروب المتتالية، منهكةً تجرجر أذيالها.

(6) صاحب مكتبة عدنان الذي اغتِيل ومكتبته بتفجيرات شارع المتنبي في بغداد قبل أعوام... نُشرَ هذا النص في جريدة الأخبار البصرية العدد 177 مايس 2007

وأنتَ تبحثُ أو تنقِّب في ذاكرة مدينةٍ ما، ما الذي سيقع بين يديك؟ ربَّما بخلاف كلِّ المدن العراقية، تمنحك زهوها وربيعها المتلاشي، مدنٌ تسيرُ إلى الخلف، في دورة زمنيَّة عجيبة، وكأنَّها تحمل موتَها وزوالَها في ثنايا بهائها وعنفوانها، مدنٌ يُشكِّل حضورها وصعودها ومضةً غريبةً في تاريخها الزمني، تمنح عطاءها ورموزها ولغتها وأسماءها التي تُطرِّز عناوين ثقافتها، وحتى صعاليكها، وشذاذ آفاقها، الذين لا يتكررون، وحتى سقط متاعها، يأبى أن يندمج في زمانها المنهك والآيل إلى الخراب.

وتلك ثيمة ربَّما تستعصي على الفهم، غير أنَّها طبيعة تلك المدن وناسها الذين لا يغادرون زمنهم، ولا رائحتهم، ولا أحاديثهم، تلك التي مرَّ عليها ربَّما أكثر من قرن...

ما الذي تُشكِّله مدينة جنوبيَّة منسيَّة في الذاكرة العراقيَّة كمدينة (الرفاعي)، ربَّما لا تُشكِّل أيَّة علامة دالَّة في جغرافيا المدن التي يتهالك عليها المستعمرون والمنقِّبون والآثاريُّون وحتَّى قطَّاع الطرق الذين تتقيؤهم أزمنة اليباب، وتلفظهم خارج نواميس العشيرة وقواميسها العسيرة.

غير أنَّها حاضرة في ذاكرة ناسها وذاكرتنا التي تذوي بعد أن خرجنا من أردية قرننا العشرين، نحن أبناؤه البررة والقتلة، نحن ضحاياه وجلَّاديه، نحن شهوده ورموزه المهزومون.

كلُّ المدن تعيدُ تشكيل روحها ورؤاها وأرديتها، عن طريق ناسها وناسها الباقين_دائماً_ نحتكم إلى الناس الباقين.

يقول الطاهر وطَّار: لا يبقى في الوادي غير حجارة ...

(عدنان) (بائع جرايد)، ذاك الفتى الكادح في درابين الرفاعي ومقاهيها إبَّان بداية السبعينيَّات، وهو يحتضنُ جرائدَه وكأنَّه على موعدٍ مع المجهول، بدشداشته الجنوبيَّة، كان يوزِّع شغفه السبعينيَّ على الوجوه السُّمر من أبناء مدينته، وهم مشدودون إلى رايات (الجبهة الوطنيَّة) الصاعدة في الأُفق، وعودة الأحبَّة من المغيَّبين في السجون أو في المنافي البعيدة.

كم هو غريب وثقيل تاريخ الناس والمدن في بلادنا، إنَّه محكوم دائمًا بالمنافي القاسية، والسجون البغيضة، المزروعة على طول خارطته الحزينة، مدن للنفي (بدرة، الفاو)، وسجون للعزلة الموحشة (نقرة السلمان، سجن الكوت، سجن بعقوبة، سجن الحلة، قصر النهاية، وسجن أبو غريب)، والسجون المحدثة (بوكا، سوسة، المطار) ...

كان (عدنان) يتطلَّع للمجيء إلى بغداد مع عائلته كأيِّ جنوبيٍّ تشدُّه (العاصمة) ببريقها وأضوائها وفرص العمل التي تُغري سكَّان الأطراف بالمغامرة وشدِّ الرحيل إلى بغداد، كان ذلك في منتصف السبعينيَّات من القرن الماضي.

بدأ يتلمَّس خطواته الأولى في أكثر وأشد أحيائها بؤسًا، إنَّها مدينة (الثورة) المدينة العمَّالية التي استقبلت قوافل المهاجرين الجنوبيين بعد 14 تموز 1958، حينما تحوَّلت هذه الأراضي الزراعية (حينها) إلى بيوتٍ عمَّالية لتؤسِّس بذلك حزام الفقر لأوَّل مرَّة وبشكلٍ رسميٍّ على أطراف بغداد الشرقيَّة.

الغريب أنَّ هذه المدينة وطوال أكثر من نصفِ قرنٍ لم تتغيَّر معالمها، بل ازدادت بؤسًا وقتامةً، على الرغم من اتِّساعها

العشوائيِّ وتكاثرها السكَّانيِّ واستمرارها برفد العمالة التي تحتاجها (العاصمة) في شتَّى المجالات.

ومع بدايات تشغيل أولى المصانع المملوكة للدولة، وازدهار بعض الصناعات المحلِّيَّة (الأهليَّة) حتَّى ازدادت الحاجة للأيدي العاملة؛ فكانت (المدينة) معينًا لا ينضب لهذا الطلب، مِمَّا أوجد مناخًا طبقيًا يستوعب تنامي هذه الشريحة بشكلٍ ملحوظٍ منذ نهايات عقد الخمسينيَّات، مقتربةً من حركة اليسار العراقيِّ وتنظيماته النقابية العمَّالية.

(لازال المشهد حاضرًا في ذاكرتنا عن أوَّل تظاهرة ضمَّت العمَّال والجنود والكسبة من مدينة الثورة، خرجت صبيحة 9 شباط عام 1963 مستنكرةً الانقلاب الفاشي، وهي تزحف باتجاه مبنى وزارة الدفاع في منطقة (الميدان) لمؤازرة (الزعيم) نصير المظلومين).

هذه المدينة التي تشكَّلت معالمها حديثًا، والتي بات واضحًا أنَّها أصبحت معلمًا من معالم (بغداد) المهمَّة عن طريق رفدِها بألمع الفنَّانين والكتَّاب والشعراء الذين شكَّلَ حضورهم الثقافي علامةً متميِّزة في النصف الثاني من القرن العشرين.

هذا الحضورُ البهيُّ (طبقيًا وثقافيًا) شكَّل هاجسًا ثقيلًا لحقبة الفاشست الثانية، حيث بدت أولى علامات التذمُّر والتململ ثمَّ المضايقات والضغوط، ثمَّ الاعتقالات والسجون والتصفيات الجسديَّة لتتواصل بإشعال حرب الثمانينيَّات، ثمَّ ليبدأ فصلٌ مأساويٌّ جديدٌ من تاريخ هذه (المدينة) التي ابتلعت طاحونةُ الحرب المستعرة جموعَ شبابها الزاهي، حتَّى إنَّ مشهد اللافتات السود التي تنعى قتلى الحرب وقد غطَّت فضاء (المدينة)

وحجبتها عن السماء، بات هو الأوحد طوال عقد الثمانينيَّات المأساوي.

غير أنَّ المآسي لم تنتهِ...

في ظلِّ هذه التضاريس والمناخات كان (عدنان) يسعى في دروب المدينة، وربَّما هي صدفة، تلك التي قادته لأنَّ يلتقي بـ(حسن ضايع)، هذا الكادح الجنوبي المتحدِّر من ريف العمارة إلى ضجيج بغداد عند بداية خمسينيَّات القرن الماضي، الذي استطاع بعد سنين أن يجدَ لنفسه (كشكًا) لبيع الكتب على رصيف شارع الرشيد وفي محلَّة السنك البغدادية المعروفة، وبمثابرةٍ وصبرٍ طويلينِ أسَّس مكتبته العتيدة نهاية سبعينيَّات القرن المنصرم (مكتبة اليقظة العربية).

الغريب أنَّ حسن ضايع كان أمِّيًّا، أو بالكاد يفكُّ الخطَّ، لكنَّه متبصرٌ وعارفٌ بما تحتاجه الذائقة الثقافية والمعرفية من تلك الكتب التي كان يرفدنا بها من لبنان ومن دور النشر المعروفة فيها، كدار العودة والفارابي وابن رشد ودار الطليعة وغيرها.

هذا الجنوبيُّ العذب كان يزوِّدنا بتلك العناوين المبهرة من روائع الأدب الروسي وأعمال فرويد المترجمة وجواد علي في تاريخه المفصَّل وأعمال الدكتور علي الوردي التي سرعانَ ما تنفدُ عند توزيعها، ولا سيَّما الأجزاء الأخيرة من اللمحات الاجتماعية، وكثيرًا ما كنت تشاهد الدكتور علي الوردي وهو يناقش (أبو علي) في مكتبته عن طبيعة المجتمع العراقي وشخصيَّة الفرد فيه.

أو في صدفةٍ قد لا تتكرَّر، تشاهد الدكتورة حياة شرارة بتلك البساطة والنحافة والتواضع وقصَّة الشعر الرجالية وهي تتابع طبع روايات (تورجنيف) في (مكتبته)، التي عكفت على ترجمتها من الروسية أخيرًا، وأيضا كانت أعمال محمد باقر الصدر متداولة، حينها، ومطلوبة، (اقتصادنا وفلسفتنا وكتبه الأخرى)، التي كان (أبو علي) يحرص على توفيرها في مكتبته العامرة.

إنَّ زيارة مكتبة في شارع الرشيد أو السعدون كان بمنزلة طقسٍ سبعينيٍّ قد يُثير الغرابة، بالكاد تستطيع الدخول، وبالكاد تستطيع الخروج، إنَّها زحمة لا تشبهها أيَّة زحمة أخرى.

هذا المشهد يكاد لا يتكرَّر إلَّا في معارض الكتب السنوية الدولية، تلك التي يتزاحم عليها القرَّاء وأصحاب المكتبات وتجَّار الكتب الذين يحرصون على شرائِها وبيعِها بأسعارٍ مرتفعة.

وسط هذه الترانيم (الكتبية) كنتَ تجد (عدنان) ملازمًا لأستاذه حسن ضايع ولسنين متعدِّدة، دؤوبًا ومثابرًا في عمله حيث حفظ (الصانع) (الصنعة)!

وتمرُّ الأيَّام القاسية.

قاسية دائمًا أيَّامنا، حيث سنين الحروب والحصار المتتالية، بكلِّ ثقلها ووجعها وحرمانها، حتَّى إنَّك تجد الأديب والمثقَّف يفترش أرصفةَ المتنبي ليقتات من بيع كتبه، وبقيَّة الناس باعوا مدَّخراتهم وحاجيَّات بيوتهم لكي يستطيعوا الاستمرار، ومَن منَّا لم يبع شيئًا من مقتنياته ليعتاش بها على شظف تسعينيَّات الجبروت المهزوم في آخر الغزوات.

من (چمبر) فقيرٍ على رصيف المتنبي، بدأ (عدنان) يقارع سنوات الحصار الرجيمة، مرةً عبر المستنسخ وأخرى مِمَّا تجود به مكتبات القرَّاء وهم يحثُّون الخطى للخلاص من ضائقة الجوع، جوع الاصطبار والاحتمال على كلِّ الهزائم التي كان يبتلعها نظام يسير بالعراق نحو الخراب.

ذاك هو ديدن المتنبي وأرصفته التي تعجُّ بالآلاف من الحكايا عن مكتبات مباعة وأخرى مصادرة وتلك التي احترقت بسببٍ مجهولٍ...

وبعد سنين صعبة، وبإصرارٍ وكفاحٍ لا يكلُّ استطاع (ابن الرفاعي) أن يؤسِّسَ مكتبة (عدنان)، حتَّى ذاع صيتها وأصبحت قبلةَ الكتابِ القادم من لبنان ومصر ودمشق وحتَّى طهران لاحقًا.

حيث أعادت لنا (مكتبة عدنان) بهجة طقوس السبعينيَّات عبر تلك العناوين المبهرة وذاك الازدحام المحبَّب لمقتني الكتاب وقرَّائه.

إنَّه طقسٌ يتكرَّر بإصرار...

وهنا لا بدَّ أن نشير إلى لمسات (محمَّد سلمان) وذائقته الكتبية التي كثيرًا ما ارتكن إليها (عدنان) في اختيار العناوين وربَّما دبلوماسية الاتصال والتوصيل تلك التي يجيدها، ساعدت أيضًا على أن ينتشرَ صيت هذه المكتبة لتصبح واحدةً من مكتبات العراق الأوسع انتشارًا والأكثر توزيعًا...

ربَّما لا نستغرب بوصفنا عراقيين أنَّ الكتابَ وصاحبَ الكتاب يمكن أن يُستهدف وبذرائعَ متعدِّدة، من عهد (المكتوبچي) حتَّى

سقوط الفاشية، غير أنَّ الغرابة تكمن في ابتكار همجيات حداثوية متعطِّشة لتدمير كلَّما هو حضاري في هذا البلد، الإنسان والمكان والكتاب...

وبلحظةٍ منفلتةٍ من تاريخ الإنسانية.

يتحوَّل شارع المتنبي إلى رماد!!!

....

.... طائر الغرَّاف يحلِّق بعيدًا

عن المتنبي وبغداد

ليحطَّ جنوبًا،

بين أحضان مدينته (الرفاعي)

ونخيلها الباسق،

حيث آذار الربيع، وقد حلَّ باكرًا

لتكتمل (دورة السنة)،

ولكن بدونك

أيها الطائر الحزين....

النحّات الكوردي الراحل حسين مايخان

أتذكّره وهو يوزِّع جريدة الاتحاد سرًّا، كيف كان حريصًا على إيصالها لنا في بغداد، وعلى جمع المساهمات والملاحظات حول موادها، من بغداد التي يخيم عليها كابوس الفاشية، بابتسامته الساخرة من البعثيين المتحذلقين في أروقة وزارة الإعلام وأبواقها الصفراء الزاعقة، في مشاكساته الصريحة للقيمين على جمعية التشكيليين العراقيين أو في مركز الفنون.

حسين مايخان، ذاك الفتى الكردي الذي مرق من زقاقٍ فقيرٍ من أزقة (عكد الأكراد) المطلّ على شارع الكفاح، هذا (العكد) الضاجُّ بالحيوية والمتّقد وعيًا سياسيًّا مشهودًا، عرفته الحركة الوطنية وخرج منه رموز وجماعات أغنت الخارطة السياسية العراقية بتلاوين من المثقّفين والفنّانين والأدباء والسياسيين الكرد، واجهوا الأنظمة الدكتاتورية وقاوموا التعسُّف الفاشي والشوفيني وعمليّات التطهير العرقي أمثال: (عادل مراد، عباس البدري، حيدر الفيلي، محمد جاسم بندر، مجيد المؤمن، حيدر الحيدر، أحمد علي أكبر... وآخرين غيرهم).

من هذا العكد خرجت الجموع الحاشدة وهي تستنكر وتشجب وتقاوم الانقلاب الفاشي الأسود صبيحة 8 شباط 1963، وسقط الكثير منهم وهم يواجهون دبابات الانقلابيين الفاشست. شهد هذا (العكد) عمليَّات التهجير القسري بداية الثمانينيَّات من القرن الماضي، عوائل بأكملها أقفلت أبواب دورها ودمغت بالشمع الأحمر، إلى مصير مجهول، إمَّا خارج الحدود أو إلى أقبية النظام أو مناطق الحجز الصحراوية.

يقول حسين مايخان: «بدأتُ العمل السياسي مبكرًا عام 1965 في صفوف اتحاد طلبة كردستان، حيث كانت ثانوية الفيلية الأهلية ساحةً للتيَّارات السياسية الكردية اليسارية والقومية. كان المناخ السياسي محتقنًا وبالأخصِّ بعد نكسة 5 حزيران 1967، إذ كان لا بدَّ للجماهير من أن تعبِّر عن غضبها، وأن يكون لها حضور في المشهد السياسي العراقي، فكانت الاحتجاجات والإضرابات الطلابية تعبيرًا صادقًا وأكيدًا عن رفضنا للهزيمة وعلى ضرورة مراجعة الذات، وأن تتحمَّل الأنظمة الحاكمة مسؤوليَّتها التاريخية في تلك المرحلة، كانت بحقٍّ لحظةَ انعطاف ثوري انعكست على مجمل الحركات السياسية وعلى الشارع العراقي».

بعد انتفاضة آذار 1991، يقول حسين مايخان: وخلال سنوات التسعينيَّات من القرن الماضي وحتى سقوط النظام الفاشي، كنتُ مكلَّفًا بالاتصال بالمثقَّفين العرب العراقيين المناوئين للنظام في بغداد وإيصال جريدة الاتحاد الأسبوعية بالعربية (جريدة الاتحاد الوطني الكردستاني) لهم، علمًا بأنَّها

كانت تصدر في السليمانية وتصلني بواسطة المناضل (محمد حسن ولي).

«كنَّا نوزِّعها بطريقةٍ غريبةٍ وسريعةٍ، رغم أنف النظام والأعداء كان لانتشارها آثار في توعية الناس بحقيقة النظام الفاشي وكيف أنه آيل للسقوط قريبًا».

تتلمذ على يد النحَّات الرائد الكبير خالد الرحَّال والنحَّات ميران السعدي، حيث تخرَّج في معهد الفنون الجميلة - قسم النحت عام 1977.

«بدأ ولعي بالنحت مبكِّرًا، وذلك بتصميم وتنفيذ أعمال بالطين ثمَّ بالجبس لبعض الوجوه البشرية غير المكتملة أو لبعض الحيوانات، غير أنَّ مشاهداتي المتكرِّرة لمعروضات المتحف العراقي القديم رسَّخت اهتمامي وولعي بهذا الفنِّ الجميل، وخصوصًا انبهاري الكبير بحضارات وادي الرافدين القديمة (السومرية – البابلية – الآشورية) وتلك الأعمال الخالدة التي أفرزتها هذه الحضارات من خلال الجداريَّات والمنحوتات التي عكست لنا مدى التطوُّر الفني والجمالي لتلك الفترة».

كانت تجرِبته في المتحف البغدادي (حيث كان مسؤولًا عن تنفيذ الأعمال النحتية للمتحف البغدادي) تجربةً غنيَّةً ومريرةً في آنٍ واحد، وحينها أنجز أعمالًا نصفية نحتية وبالجبس لمجموعة من الشعراء والفنَّانين العراقيين الروَّاد ومنهم (جواد سليم، خالد الرحَّال، فائق حسن، عطا صبري) ومن قرَّاء المقام (القبانجي، يوسف عمر، ناظم الغزالي) ومن الشعراء (الزهاوي،

الرصافي، ملّا عبود الكرخي). وكذلك أنجز أعمالًا نحتية لأمناء العاصمة (بغداد) منذ تأسيس الدولة العراقية، غير أنَّ تلك الأعمال لم تُعرض في المتحف البغدادي في وقتها؛ وذلك بسبب أمِّيَّة المسؤولين عن المتحف وجهلهم، ولا يعرف مصيرها حتَّى الآن!

يميل النحَّات حسين ميخان إلى الاتجاه التعبيري من الناحية الأسلوبية، مركِّزًا على موضوع الإنسان بوصفِهِ جوهر الكون وذلك عبر رصد معاناته وتجسيدها بسبب القهر والاستلاب والتهميش.

أمَّا أعماله عن المرأة؛ فإنَّها تجسِّد كونها رمزًا للخصوبة والحياة على الرغم من الاضطهاد الذي يطالها في مجتمعنا.

عن آخر أعماله النحتية، عملٌ نحتيٌّ للقاضي الشهيد بيرونير حسن الذي اغتِيل غدرًا صباح 13/2/2005 مع ابنه.

وبصدد إقامة معرضٍ لأعماله البرونزية في مدينة السليمانية.

السيرة الذاتية للفنَّان حسين مايخان:

- وُلد عام 1947/ خانقين

- خريـج معهد الفنون الجميلة بغداد – فرع النحت 1977 – 1978.

- خريـج كلية الفنون الجميلة بغداد – فرع النحت 2001 – 2002.

- خريج معهد الإدارة 1972 – 1973.

- دورة صيانة الأعمال الفنية والعرض المتحفي – يونسكو – بغداد 1981.

- شهادة خبرة في مجال صب الأعمال الفنية النحتية البرونزية – وزارة الثقافة – دائرة الفنون 2005.

- عضو نقابة الفنانين العراقيين.

- عضو جمعية التشكيليين العراقيين.

- عضو المجلس المركزي لنقابة الفنانين العراقيين.

- أقام عدة معارض شخصية.

- له مشاركات في المعارض التشكيلية داخل العراق وخارجه.

- له شهادات تقديرية.

- فنان متفرغ.

لكنه غادرنا مبكِرا...[7]

---

(7)هذا المقال سبق أن نُشر في جريدة الأخبار البصرية العدد 97 في يوم السبت الموافق 16 حزيران 2005

تداعيات حسَّان بن خنجر
وهو يتنفَّس رطوبة الفاو ومستنقعاته المائية[8]

بقلم: باسل محمد عبد الكريم

إلى محمد حسن [9]

رفيق خنادق الموت في الفاو

1) تمتدُّ يدك

فتحتوي الأماني القديمة،

ثمَّ تنثرها وتعيد احتواءها،

إنَّها لعبة السنين العجاف

---

(8) الحوار المتمدن - العدد: 6598 - 2020 / 6 / 20 - 05:22
المحور: الأدب والفنُّ

(9) روائيٌّ عراقيٌّ مقيمٌ في بلجيكا حاليًّا.

2) أيها الفتى (الغرُّ) المشاكس

بيني وبينك خطوتان،

طيلة عقد من السنين،

وما امتلكت جرأة الاختصار،

في عنادك،

كنَّا نحتمي بفارق السنين وسلطنة التثقف،

واكتمال الرغبات المنسية،

كنَّا نداري شططك،

بقوانين العشيرة وانضباط القبيلة،

كنت المكمَّم الذي نتمنى زعيقه،

لأنَّنا صمتنا دهرًا،

ولم ننطق كفرًا.

كنَّا نداري لوعتنا بالعافية التي ستهطل علينا يومًا،

غير أنَّها،

محض افتراءات،

أضغاث أحلام،

وأفراح مفترضة.

3) في مشغله القابع فوق مئذنة الجامع،

كان (حسَّان بن خنجر) يأوينا،

في قلبه وبين الضلوع،

يحدُّثنا عن (العاشق)،

الذي مات من الحبِّ،

وعن لوعة المساء،

وأحزانه الجليلة،

عن (دوخته) المفترضة،

وصحوه المؤجَّل،

عن هيئة (الملاكم) الذي غادرنا،

مجلَّلًا بالزوابع،

يداري صمته،

ويخجل من عذريَّته.

4) أيُّها المغامر العتيد،

ذاك الذي لم تروضه امرأة،

تمهَّل قليلًا وتزوَّد منَّا:

أسئلة وشكوك،

قلق مذهل واحتراقات دائمة،

هموم كونية وبحث مستديم،

سفر دائم وأحلام لا تنتهي،

5) إنَّكَ وأنتَ القابِعُ في مَكمَنِ المُحاوَلَة،

لتكن عيناك في قلب الأشياء،

تلمَّس طراوتها وخشونتها،

تذوَّق مرارتها وحلاوتها،

دَع عَنكَ المتربِّصين،

فهي متعتك ومحاولتك البِكر،

أنتَ الآن تعيش.

6) أيُّها المقارع خفافيش السوق،

المجافي بطريركية عالم (الخياطة) الأفذاذ،

يا مَن تحتمي بـ (جيكور) الأناقة،

وفذلكة صنَّاع (الجلود) المتحذلقين،

لتمرق خجلًا صوبَ أرداف الثلج وهي في تشهّيها،

والتهابها،

أصابعك تعبث بخارطتها الحنون،

وهي تتلوَّى غنجًا،

تتأوه مواجعًا،

تستغيث ولهًا،

تطيح بالواجد والموجود،

ثمَّ تصرخ هامدةً:

(آه ... يا حسَّان وقد طعنتني في الألق المنير،

أنَّى لك أن تعيدني حيث ابتديت)

7) عند سباخ الفاو،

هيأت لنا المصائد،

غير أنَّ الطريدة لم توافِنا،

واعتللت بالمدافع،

وضوضاؤها الذي يحشرنا بين الطين وانطباق الجفون.

يا قمرا مطعونا،

في الضلوع،

هل يغادرنا الأحبَّة في الزمن المأبون،

وهل يتعالى صرح الجنون،

تائهًا ما بين (درابين العبيدي)

ومجاريها المنكشفة صوب السماء،

وبين تشتُّت الدموع فوق كنائس (بروكسل) الباردة.

8) قلتُ:

أيسمعني ذاك الجندي القديم،

حالمًا بجنَّات عدن في ذاك السراب،

الأبدي.

يا من تساميت عن اللحظة،

واحتملت وداع الأحبَّة،

أمُّك (الآن) تقول وداعًا،

9) حينما غادرني،

أودعني

موبقاته،

أمنياته.

توفيق ناجي .... استذكار متأخِّر

لنتذكَّر أبا ندى

وفاء لذكرى فقيد الحركة الوطنية التقدُّمية

توفيق ناجي (أبو ندى) الذي غاب نجمه عن سماء العراق قبل ستة أعوام. العراق الذي كثيرًا ما تغنَّى به الفقيد وناضل من أجله ضدَّ تسلُّط الفاشية البعثية والدكتاتورية البغيضة. مِمَّا حدا بأقزام النظام البائد أن يلاحقوه كظلِّه حتَّى أصبحَ محلُّ (خياطة توفيق ناجي) هاجسًا مرعبًا لهم.

كان آخر استدعاء له من مديرية الأمن العامة قبل وفاته بأيَّام قليلة سببًا في اغتياله بالجلطة الدماغية!

لا يمكن أن تنسى جموعُ المثقَّفين العراقيين ولأكثر من ربع قرنٍ محلَّ خياطة توفيق ناجي (أبي ندى) الذي كان بمنزلة صالونٍ ثقافيٍّ يجتمع فيه كلُّ الناس الطيبين.

إنَّ توفيق ناجي (أبا ندى) باقٍ في قلوب أحبَّته وأصدقائه.

لفيفٌ من أصدقاء الفقيد (أبي ندى)[10]

بغداد – أيلول/2003

---

(10) /تنويه/

القيت هذه الكلمات في احتفالية اقيمت في احدى الدور التراثية البغدادية في شارع الرشيد استذكاراً لصديقنا الغائب الحاضر توفيق ناجي(ابو ندى) في ايلول / ٢٠٠٣

المعلم

عبد الرحمن طهمازي

في نهايات ستينيَّات القرن الماضي تعرَّفتُ على أبي ندى خيَّاطًا يعمل في شارع الكفاح. وكان صديقي الذي عرَّفني عليه أحد المتخصِّصين القلائل بفنِّ الصداقة، أمَّا أبو ندى؛ فقد برهنَ دائمًا على أنَّ العلاقات الإنسانية تستحقُّ التضحية والحراسة.

في ذلك الوقت كنت أحبُّ الحديث معه عن السينما، وكان يقدِّم شيئًا من ذكائه الذي أنضجته حرفته، لينتقلَ إلى الدردشة في السياسة وأحيانًا في أدب الرواية، حيث علمت فيما بعد أنَّه شغوفٌ به، وهذا أيضًا جعلنا قريبين.

طوال السنوات التي عرفته فيها كان لا يغادر احتشامه ويتمسَّك بأخلاقٍ تشير إلى رقيّه العاطفي، واستطاع أن يتفوَّق على الظروف التي انتابته بنوعٍ من الثقة قلَّما صادفناه في محيطنا الاجتماعي. إنَّه رجلٌ تدرَّج مع الاصطبار والأمل وأطلَّ جيدًا على زوال الطوارئ مهما بدت للآخرين أبدية.

هنا أتحدَّث عن الضغوط التي تلقَّاها، التي كان من الممكن أن تتركه نهبًا للوساوس والتفكك، لكنه على عكس ذلك، وجد نفسه مستقرًّا هناك في الأعماق التي ربَّما مارس دفنها بعناية، وهكذا قد أظهر جلدًا قد أربك أصدقاءه أحيانًا، لهذا سمَّاه بعضهم (المعلم).

اعتقدت دائمًا أنَّه كان يعرف أكثر مِمَّا يبوح، أنا لم ألتقِ به فترات متعدِّدة وحين كنت أراه سرعان ما أجدُ عنده ما يمكن أن يقال وأن يسمع، وهذه هي علامات الحياة بالنسبة إلى رجلٍ ظلَّ يعمل على تحسين وجوده الأخلاقي وصقل تاريخ صداقاته.

ولكن ماذا يقول امرؤ مثلي عن الأصدقاء الذين رحلوا؟

أين حلَّ بهم الدهر؟ أكما قال الملك الجاهلي: نحن ادجلنا وهم باتوا؟

ليس المكان هو الذي أتحدَّث عنه .. المكان الذي دُفنوا منه.

لا، ولكنَّه المكان الذي تركوه ولم يجرؤ أحد على ملئه.

عزائي للأصدقاء، لصديقي مظهر عبد المفرجي الذي عرَّفني على أبي ندى.

مناضل ضد الفاشية

توفيق ناجي أبو ندى

بعد خروجه من معتقل نقرة السلمان 1968 أعلن انحيازه إلى القيادة المركزية مناضلًا صلبًا أمام تحدِّيات قوى اليمين والرجعية التي عملت على استخدام أقسى صنوف المواجهة الشرسة لضرب القوى التقدمية، غير أنَّ فقيدنا وعبر محلِّه المتواضع (محل خياطة) في شارع السعدون تحوَّل إلى محطَّةٍ لكلِّ الشيوعيين الوطنيين العراقيين ولأكثر من ربع قرنٍ، حيث تحوَّل إلى نقطة اتصال لتبادل الكتب المستنسَخة والمنشورات السياسية الممنوعة، فكان كتاب حنا بطاطو حول العراق والمقايضة بقلم نجم محمود ومذكَّرات قادة الحزب الشيوعي وغيرها من المطبوعات الأدبية والفنية الممنوعة تم تداولها عبر هذه (المحطة الوطنية) التي تستقطب أروع كتَّاب وسياسيي وفنَّاني عراقنا العزيز، أمثال رشدي العامل وعبد الوهَّاب البيَّاتي وفهد الأسدي والدكتور مجيد بكتاش وكاظم فرهود وخضير عباس الزبيدي وعامر الداغستاني.

غير أنَّ المعلِّم توفيق ناجي كما لقَّبه صديقنا الشاعر عبد الرحمن طهمازي ولأكثر من عقدٍ من السنين كان ضيفًا مستمرًّا في أقبية الأمن العامة ودهاليزها، وكانت آخر زيارة له إليها سببًا في وفاته بالجلطة الدماغية.

كنَّا نتمنَّى أن تكون معنا أيُّها الصديق والرفيق أبا ندى بعد انهيار النظام الفاشي وسقوط الدكتاتورية، غير أنَّ ذكراك حيَّةٌ في ضمائر كلِّ الطيبين.

صديقك

أبو ذر عقيل الخزاعي

عذرًا أبا ندى ...

قاسم علوان

لم يكن يتسنَّى لأحدٍ منَّا أن يرثي أو يستذكر فقيدًا عزيزًا بمنزلة توفيق ناجي ...

وهو المثقَّف والشخصية اليسارية العريقة، التي دبغتها السجون والمعتقلات في وقتٍ مبكِّرٍ من حياتها وإلى اللحظات الأخيرة منها... أبو ندى المعروف جيدًا لدى الكثير من الأدباء والفنَّانين والمثقَّفين العراقيين... حينما كان يمرُّ في السنوات الأخيرة يوم ذكرى وفاته - وبالحقيقة اغتياله - يمرُّ هكذا كمرور أيِّ يومٍ عادي من حياتنا، دون أن يجرؤ أحد أن يستذكره أو يرثيه على أيٍّ من صفحات أيَّة مجلَّة أو جريدة، أو حتَّى أن يشيرَ إليه أو لحضوره الدافئ في أوساط المثقَّفين، وهو القريب جدًّا لهذا العدد الكبير من الشعراء والكتَّاب المعروفين على الساحة الثقافية العراقية، ذلك الحضور البهيُّ والسامي الذي استمرَّ حتَّى بعد نهاية ما سُمِّي بـ (الجبهة الوطنية) وانهيار ذلك (التحالف) في سنوات نهاية السبعينيَّات وما تلاها في الثمانينيَّات من القرن الماضي... لايستطيع أن يتذكَّره أحدٌ علنًا، اللهم إلَّا أفراد عائلته وفيما بينهم...
على الرغم من أنَّه لم يكن ينتمي إلى (الحزب الشيوعي) في تلك الفترة ولا التي سبقتها... لقد كان (محلُّه) في شارع السعدون في مدخل الزقاق المؤدِّي إلى (فرقة المسرح الفني الحديث) قريبًا

جدًّا من جريدة (طريق الشعب) في تلك السنوات، وهذه هي المفارقة...!! مثلًا حينما نفتقد الشاعر الراحل رشدي العامل، ويحتاجونه (الرفاق) في القسم الثقافي من الجريدة، نبحثُ عنه عند توفيق... في محلِّه البسيط المتواضع بجوار سينما بابل، الذي هو عبارة عن صالونٍ ثقافي (واسع...!!) تلتقي فيه مجموعةٌ من مثقَّفي العراق وأدبائه، تملؤه شخصيَّته الرائعة والكريمة إلى أبعد الحدود، وكان ذلك (الصالون) محطَّة مهمَّة بالنسبة إلينا نحن القادمون من المحافظات فيما بعد تخرُّجنا، لنلتقي بأصدقائنا وزملائنا السابقين منذ أيَّام الدراسة، فيمكن أن نضرب موعدًا هناك، أو أن نجد ضالَّتنا من الكتب التي نبحث عنها في مكتبات بغداد ولم نجدها. حينما كنتُ ذاهبًا من البصرة إلى بغداد لأقضي (شهر العسل) مع عروستي، من الطبيعي أن يكون أوَّل مكان أقصده في بغداد ذلك (الصالون) في الطريق إليه نلتقي صدفةً بصديقي الممثل الرائع... المفقود إلى هذه اللحظة غانم بابان، وبعد تبادل التحية، يسألنا عن وجهتنا، فأفصح عنها، ليجيبني:

- أنا لا أستطيع أن أذهب معكم إلى هناك..

- لماذا...؟

- لأني (أطلب) توفيق مبلغًا من المال وأخشى أن يظنَّ حينما يراني بأنَّني جئت من أجل ذلك فيشعر بالحرج...!!

فننفجر بالضحك في عرض شارع السعدون... والعروس لا تفهم الأمر طبعًا لأشرحه لها فيما بعد، ويفارقنا غانم... وحينما نصل إلى ذلك (الصالون) وأروي لأبي ندى ما قاله غانم ضحك

وقال (لا يا ملعون...). كما كان بعضنا (نحن أبناء المحافظات الأخرى) يغامر ويقطع مئات الكيلومترات من المسافات لكي يخيط أو (يفصِّل) بدلته عند أبي ندى، فقد كان فضلًا عن كلِّ اهتماماته الأخرى (خيَّاطًا) للبدلات الرجالية من الدرجة الأولى، ولا أعتقد أنَّ هناك من يضاهي مهاراته في هذا الفنِّ، إنَّه لم يكن خيَّاطًا فحسب، بل كان فنَّانًا حقيقيًّا... مرَّة جاء له أحد أصدقائنا - وهو طالب في معهد الفنون الجميلة آنذاك - بقطعة قماش، وكان مبهورًا بـ(قمصلة) كان قد شاهد أحد زملائه في المعهد يرتديها... فطلب توفيق من صاحبنا أن يصف له (القمصلة) بدقَّة، وأخذ ورقةً وقلمًا ليرسم خلال الوصف الذي تقدَّم به ذلك الشاب، وتوفيق يطرح عليه أسئلته وهو يرسم وذاك يجيب، وحينما انتهى من وصفه، أراه توفيق الرسم وسأله هل هي كذلك...؟ أجابه مبهورًا:- نعم إنها هي... فقال له توفيق:

- تعال بعد أسبوعٍ لتجدها جاهزة...

معذرة أبا ندى ... لا أستطيع أن أفيك حقَّك..

إلك كل المـجد يا زين يا توفيق

المـثلك يابو ندى هذا الوكت

إلك كل المجد يا زين يا مـهيوب

شهيد الفكر باقي وما يحتاج كل تعليق

بجينه وما بجين عليك يا محبوب

إلك كل المجـد يا زيـن يا توفيق

الشاعر الشعبي عبد الهادي رياح/أبو أنيس

عبر توفيق ناجي نحو الحياة

حسين خلف

يبدو من الصعوبة بمكان التحدُّث عن الماضي، عن التاريـخ دون أن يكون للحاضر تأثيره، مِمَّا يجعل الحيادية، الواقعية، الصدق أمرًا ليس مستحيلًا، لكنَّه محفوفٌ بالكثير من الشكوك، لذا سأدخل إلى عالم توفيق ناجي من باب الذكريات وبقولٍ محدَّد (عبر توفيق ناجي عبر الحقيقة). أواخر الستينيَّات في عنفوان الشباب، واندفاعاته، وصخب تلك الحقبة التاريخية، واحتدام صراعاتها، وتشابك أحداثها المحلِّية والعالمية: الصراع العقائدي بين الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي الذي امتدَّ ظله إلى كلِّ بقاع الأرض وتمخض عندنا بانقسام الحزب الشيوعي، ليخرج طرفا الانقسام أكثر ضعفًا وأكثر انكشافًا للبعث العائد للتوِّ إلى السلطة مرَّةً ثانية لكن بأقنعة سميكة، رافعًا شعارات المرحلة: الرد على نكسة حزيران تكريس التحالف مع المعسكر الاشتراكي لمواجهة أمريكا وإسرائيل والرجعية العربية، لا لشيء سوى تبييض وجه البعث وكسب الوقت لتثبيت الأقدام.

تأثيرات المقاومة الفلسطينية المسلَّحة على الوضع العربي، حرب الغوار في أمريكا الجنوبية الموت البطولي لتشي جيفارا، أحداث أيَّار في باريس، الحرب البطولية لشعوب الهند الصينية: فيتنام، كمبوديا، لاوس، مناخ الثقافة الذي وسم تلك الحقبة فكان زخمًا جارفًا لقراءات ثقافية متنوِّعة، على رأسها الفكر الماركسي بكلِّ مدارسه.

في ظلِّ هذه الأجواء كان التعرُّف إلى توفيق ناجي عن طريق صديق العمر ورفيق الدرب مصطفى سام، وذلك في محلِّه القديم في الكفاح وإنْ كانت لقاءاتنا متباعدة، لكن بعد انتقاله إلى شارع السعدون أوائل السبعينيَّات، أصبحَ تردُّدنا عليه شبه منتظم، إذ شاءت الصدف أن يكون موقع محلِّه مفترقَ طرقٍ قريبًا جدًّا لمحطَّات مهمَّة، المركز الثقافي السوفييتي الذي كان محطَّة مهمَّة في رفد الثقافة بالكتب والمجلَّات، وكنوز السينما السوفييتية التي أذكر منها رائعتي ازنشتاين: المدرعة بوتمكين – أكتوبر، فضلًا عن روائع الأدب الروسي الكلاسيكي: الأبله، الليالي البيضاء، المفتش العام. كذلك روائع كوزنتسيف: هاملت، لير، وغيرها. فضلًا عن فرقة الصداقة المسرحية التي أذكر عرضها الجيِّد لمسرحية تشيخوف (الدب) أدَّى الدور الرئيس فيها بتفوُّقٍ واضحٍ الفنَّان عدنان الحدَّاد. وعلى مبعدة من المحلِّ، يقع المركز التجاري الصيني الأنيق الخالي من الزوَّار على الدوام لخشية الناس من عيون رجال الأمن، هذا المركز الذي كنَّا نسترق اللحظات لنأخذ منه مؤلَّفات ماوتسي تونغ الفاخرة الطبع والإخراج، أذكر كتابيه المهمَّين: في التناقض: في الممارسة، فضلًا عن رسائل الحزب الشيوعي الصيني إلى الحزب الشيوعي السوفييتي التي يبحث عن الصراع العقائدي بينها. وبعد فترة أُضيفت محطَّة ثالثة قريبة أيضًا من محلِّ توفيق ناجي ألا وهي مقرُّ جريدة طريق الشعب. الكلُّ كان يأتي بهذه المحطَّات أو يذهب إليها عبر توفيق ناجي.

ما أكثر روَّاد مسرح بغداد الذي كانت فرقة المسرح الفنِّي الحديث تقدِّم عليه روائع المسرحيات التي شكَّلت محطَّات

مهمَّة في تاريـخ المسرح العراقي، فأكثر الروَّاد كانوا يمرُّون عبر توفيق ناجي إليه أو يحصلون على بطاقات الدخول بجهوده، إذا كانت نافذة.

كنَّا كلٌّ من الراحل العزيز مظهر عبد عباس، مصطفى سام، حسين محمد شناوة، لطفي المشهداني، سمير براخاص؛ نتردَّد عليه كثيرًا ومرَّات متعدِّدة. كان يرافقنا إلى جلساتنا في كازينوهات ومقاهي وحدائق أبي نوَّاس لنواصل جدلنا، وحواراتنا الثرية والعميقة، التي كانت سمة تلك المرحلة في حياة العراق السياسية والثقافية والاجتماعية.

كانت جلسات لا تُنسى، أذكر مرَّات متعدِّدة كانت تضمُّ في جلسة واحدة عدَّة شعراء: عزيز السماوي، شاكر السماوي، الراحل أبو سرحان، الراحل عزيز كاظم الركابي، لتصدح أشعارهم الحية والصادقة في ليالي أبي نوَّاس لتدير رؤوسنا وتشعل الدماء في عروقنا.

كانت جلسات الحوارات والجدل تطول، الأصدقاء الذين ذكرت مع عبد الرحمن طهمازي الذي كنَّا ننظر إليه بوصفه مدافعًا عن التروتسكية كذلك الشاب مؤيَّد الطلال، ولا ينسى أبدًا صديق توفيق الأثير لطفي حاتم الذي وجدته حينها مثال المثقَّف المنظَّم والمنضبط، مثال المثقف الشيوعي بعد ذلك تأتي نكسة القيادة المركزية حينما استطاع البعث الفاشي الإطاحة بقيادتها، إمَّا بإعدام مناضليها الأبطال، أو بإسقاط الآخرين الذين تخاذلوا، لتشنّ بعدها حملة اعتقالات واسعة طالت أصدقاءنا صبحي المشهداني، لطفي المشهداني، حسين محمد شناوة،

مصطفى سام، علي حسين مشيل، عبد الرحمن طهمازي، صالح خلف. لتبدأ جولة أخرى من بعد الحياة والاجتهاد والنضال السياسي بعد تشكيل الجبهة الوطنية وانهيارها ورحيل الكثير من الأصدقاء والمناضلين، والغياب الفعلي المؤثر للحزب الشيوعي عن الساحة، وبعدها تأتي سنوات طويلة عبر أيام الحرب العراقية الإيرانية، تلتها سنوات الحصار العجاف. لم أجد توفيق ناجي غير ذلك الإنسان الذي شاهدته أوَّل مرَّة، هدوءًا، رزانةً، احترام الآخر إلى حدود الروح الأبوية، لم يكن يملي على أحد شيئًا، وهذا أحصره بنفسي على الأقل، كان كأخ أو صديق أو رفيق يستفسر عن أخبارنا الشخصية والعملية والعائلية واجدين عنده أخبار الأصدقاء البعيدين في المنافي أو القريبين في الداخل المأسور من صدام حسين والبعث الفاشي والمحاصر من العالم، أو بعبارة أدق من أمريكا!

كان عارفًا بدواخل مريديه ونفوسهم، كان هناك الطارئون والوصوليون والنفعيون إلى جانب الأصدقاء الحقيقيين والمناضلين والشرفاء وهم الأغلب، كنَّا جميعًا محفورين في ذاكرته، كان مشخصًا لكلٍّ من صدقه، عمقه، جديته، كان الرجل جزءًا مهمًّا ومرحلةً رائعةً في حياتنا، لقد كان أبو الندى متنفس الكثير منَّا في أيَّام الحصار العجاف، حصار العالم وحصار صدام الروحي والثقافي، فكان اللجوء إلى أبي ندى هو الندى في صحراء سنوات الحصار القاحلة، أذكر قولًا لصديقنا أبي تمارا إنَّه خلال أيَّام الحرب العراقية الإيرانية السوداء وهيمنة ليل البعث الثقيل على العراق، يقول: كنت أهرع في إجازتي الدورية إليه مسرعًا من خطوط النار إلى محلِّ أبي الندى متكئًا على إطار الباب يملؤني

إحساس بأنَّ الحياة مستمرة وإنسانيتنا لم تمت على الرغم من عقود البعث السوداء، وهذا ليس إحساس أبي تمارا وحده، إنَّه إحساس الجميع.

كثيرًا ما وجدت ذلك الشاعر الحزين غارقًا في كرسي المحلِّ مسترخيًا بشيء من الراحة النفسية، حسين الحسيني صديق توفيق ناجي الدائم. كثيرًا ما وجدت ذلك الشاعر العليل بوجهه الشاحب النحيل مندمجًا بحديث طويل لرشدي العامل. كثيرًا ما شاهدت ذلك القاص الطيب مبتسمًا في محلِّ أبي الندى يحاورك بارتياح واضح، إنَّه فهد الأسدي، وكثيرًا ما شاهدت الكثير من تفاصيل الأعداد والتحضير لإخراج مسرحية هاملت تتم أو تهيأ خطوطها في محل أبي الندى من قبل المخرج ناجي عبد الأمير. وكثيرًا ما كنت أجد ناجي عبد الأمير يحضِّر ويخطِّط للإفلات خارج العراق في محل أبي الندى وعلى الدوام إلى أن فارقتنا تلك الروح الرائعة، كنت أجد نفسي وعالمي في محلِّ توفيق ناجي.

ولأنَّ ذكرى توفيق ناجي تبقى حيَّة فينا نحن الأحياء، ولأنَّ الفكر الذي آمن به أبو الندى كان منذ بدايته محوره الأساس هو النضال ضد استلاب الإنسان من طريق الكشف عن صيرورة هذا الاستلاب والبحث الجدي عن سُبل إلغاء هذا الاستلاب بكلِّ أنواعه الطبقية والروحية ليستعيد الإنسان نفسه بعد اغترابها، لأجل ذلك لا بدَّ من طرح السؤال الحيوي والأساسي الذي سبق وأن طرحه فلاديمير لينين في بداية القرن العشرين (ما العمل؟) ونقول نحن أيضًا ما العمل؟ إزاءَ واقع العراق الجدِّي الصعب والشائك المثقل بالمشاكل الجسام! احتلال، إرهاب

تدميري، طائفية مقيتة، إثنية متعصِّبة، وسلب ونهب كاسحان، حتى يبدو أنَّ الشعب العراقي قد فقد مقوِّمات الشعب وتحوَّل إلى مجموعات وشراذم متنافرة... ما العمل؟

هل ننأى بأنفسنا عن هذا الواقع وننفض أيدينا منه لتبقى نظيفة؟

هل ننغمس بالعملية السياسية الجارية وما يحفها من مخاطر ومنزلقات وحتى مهالك؟

هل نعمل بجهدنا ضمن أطرنا النظرية وتحليلاتها وآلياتها ا لتنظيمية ؟

لا بدَّ لنا من إيجاد الجواب!.

موت طائر غريد

بين أن ترتضي يومك

مشتعلًا كسيكارتك يا (توفيق)

وأن يشرق في وجوه تألفها

نبضٌ يرتعش كعصفور جريح

مسافة تقطعها متكئًا على سنين من العمر

لم يبق منها إلّا رائحتها

يا (توفيق) هو الوجد منتشرًا في وجوه الأحبة

أصابع مرتعشة، صلبة، هشَّة، عامرة بالحنين

محطَّة يأوي إليها المستريبون، ثكالى زمن مر

يُحلمون بزهور يانعة وأوراق خضر ومواعيد حميمة.

****

كان (دكان الخياط) مزارًا يحجُّ له الطيبون من كلِّ صوب وعلى امتداد خارطة العراق، في كلِّ زاوية من زواياه وُلدت قصيدة جديدة أو اكتملت قصَّة قصيرة أو لوحة رسَّام، وربَّما قراءة منشور سري، وبين طيَّات الأقمشة أو في جيوب (البدلات) التي لمَّا تكتمل بعدُ، غالبًا، ما دسسنا قصاصات تؤرِّخ لموعد حميم أو تدعو لشيء ما! كان محورًا لحياتنا (السرية) التي كنَّا نحياها تحت كابوس الفاشية المقيتة، كنَّا نتنفَّس، عبره، هواؤنا الذي افتقدناه طوال أربعين عامًا، أطبق فيها الكابوس بثقله علينا.

واليوم وبعد أن انهارت الفاشية، نتذكَّر (أبا الندى)، ذلك الإنسان الرقيق والشفَّاف والمبدئي، وحينما نمضي لزيارته (في مشغله) شوقًا ولهفة، ليشاركنا نشوة الحرية والانعتاق، عندها، يبدو (دكان الخياطة) ذاك المكان الأليف والحبيب للقلب مقفرًا موحشًا، محض مكان توقَّف نبضه!

غير أنَّ (توفيق ناجي) سيبقى حيًّا بيننا، وسيشاركنا هذا المخاض العسير، وسيفرح حتمًا لأنَّه حاضر معنا دائمًا !!...[11]

---

(11) نُشرت في جريدة الأخبار البصرية في العدد (121) بتاريخ 4/ شباط/ 2006

حبيب الملاك

رائدًا من رواد الحركة السينمائية في العراق

دخلت السينما إلى العراق في أوائل العشرينيَّات من القرن الماضي، استجابةً للتطوُّر الحاصل في ذائقة الناس وميولهم نحو اللهو والأنس والطرب وكثرة أوقات الفراغ، فاحتاج الناس إلى أماكن لهو لقضاء أوقاتهم والترويـح عن أنفسهم.

وكان لرجال الأعمال اليهود العراقيين وبخاصَّة أولئك الذين اطلعوا على الملاهي والمسارح ودور السينما في أوروبا دورٌ مهمٌّ في انتشار دور السينما في العراق، وذلك من طريق الشركات السينمائية التي أسسوها وأداروها، مثل شركة كولومبيا التي غيَّرت اسمها إلى الشركة العراقية للأفلام السينمائية، وقد أسَّس هذه الشركة عزرا سوداني وأخواه، وامتلكت عدَّة دور عرض منها سينما روكسي وبرودواي ومترو والرشيد، كذلك شركة السينما البغدادية التي أُسِّست سنة 1934 ومن مؤسسيها حسقيل داود دوري وسليم حيون شيري وفكتور يوسف سوبيخ.

كذلك ظهرت في العراق شركات اعتنتْ باستيراد الأفلام، ومنها شركة ستوديو بغداد للأفلام السينمائية المحدودة، وشركة فوكس للقرن العشرين، وشركة نعيم عنبر وشركائه.

حيث عملت شركة ستوديو بغداد على دبلجة الأفلام المستوردة إلى اللغات العربية والفارسية وذلك بقصد ترويجها في أسواق العراق وإيران والبحرين وباكستان.

وُلد حبيب الملاك عام 1898، كان والده الحاج حمود باشا الملاك من أعيان مدينة البصرة ويعمل مندوبًا عن البصرة في مجلس المبعوثان في الدولة العثمانية، وشغلَ وظيفة رئاسة بلدية العشَّار. عمل حبيب في مجال التجارة حتى أصبح تاجرًا معروفًا في بداياته الأولى، غير أنَّه انتبه إلى ظاهرةٍ جديدةٍ بدأت تدخل المجتمع العراقي، ألا وهي السينما بعوالمها الجميلة والمبهرة فاجتذبته وتحمَّس للعمل في هذا الميدان، خصوصًا وأنَّه كان كثير السفر والتجوال للدول العربية المحيطة، مثل فلسطين ولبنان ومصر، وشاهدَ التطوُّرَ الكبيَر الذي دخل على السينما في هذه البلدان كما يشير إلى ذلك نجله الأستاذ قحطان الملاك صاحب دار نشر الملاك المعروفة في بغداد:

(كان والدي كثير السفر إلى فلسطين ولبنان ومصر، وقد تأثَّر بعالم السينما المدهش الذي سبقتنا إليه هذه الدول آنذاك (والآن أيضًا) مع توقه لأن يلج هذه العوالم بذاك الحسِّ الشبابي لاكتشاف السينما قبل أن يفكِّر بها كتجارة).

وكانت البداية من إنشائه سينما الحمراء الصيفي في ساحة ام البروم في حديقة تحيطها الأشجار والورود، ولقد هدمتها البلدية وجعلتها أرضًا جرداء فيما بعد، أمَّا سينما الأندلس الصيفي؛ فقد أنشأها في البستان المقابل لسينما الحمراء الصيفي حيث لم يقطع من أشجار النخيل إلا ما يضيق الرؤية، وكانت السينما وسط بستان. وكذلك سينما صيفي آخر في المعقل. كذلك شيَّد منتصف الثلاثينيَّات من القرن الماضي سينما الحمراء الشتوي في البصرة، التي كانت تحفةً فنِّيَّةً في مظهرها. وقد أعيد بناؤها في الستينيات وسُمِّيت بسينما الكرنك. حيث أصبحت أم البروم ومنذ ذلك الوقت مركزًا ترفيهيًّا للمدينة فيها السينمات ودور اللهو والمقاهي والحدائق العامَّة الجميلة، فالسينما كانت مكانًا للقاء واللهو البريء المحبَّب لكلِّ العوائل، حيث تجد الأسر ملاذها في الأنس الأسبوعي داخل الصالة، وكانت هذه الظاهرة شائعةً في أغلب المدن العراقية.

ومن الطريف أن نستذكر المنادي الذي يعلن عن الفيلم الذي سيُعرض في السينما، فقد كان عباس الملقَّب (عبونة) العلامة المميَّزة لدور العرض السينمائي في البصرة وفي أم البروم تحديدًا، كما لا يمكن أن ننسى الشخصية المعروفة (تومان) الذي كان يعزف الناي ويتجوَّل في شوارع العشار مناديًا على الناس للذهاب إلى السينما.

يذكر الأستاذ قحطان الملاك في كتابه (ناس من بلدنا) أنَّ حبيب الملاك اخترق عوالم السينما في بغداد التي كانت حكرًا على رجال الأعمال اليهود وذلك بأن أنشأ أحدث دار للسينما في بغداد في الباب الشرقي مقابل سينما غازي وموقعها بناية وزارة

الإعلام سابقًا، وهي سينما النجوم حيث امتازت بجمال الزخرفة وروعة البناء، كان ذلك في عام 1949.

وكانت خطوة كبيرة في حينها حيث تخصصت في أول افتتاح لها بعرض نخبة من أفضل الأفلام العالمية، وقام كذلك بخطوة جريئة حيث استضاف الفنانين المصريين عند العرض الأول للفلم العربي في بغداد من أمثال الفنانة المصرية نعيمة عاكف ومحمود شكوكو وثريا حلمي وفريد شوقي.

أسهم الملاك في إنتاج الفلم العراقي فتنة وحسن وأنتج فيلم ارحموني والدكتور حسن، غير أنَّ مساهمته في إنتاج فيلم نبوخذ نصر التاريخي كانت تجرِبة قاسية؛ بسبب فشل الفيلم الذي كانت تهدف شركة شهرزاد للإنتاج السينمائي من خلال إنتاجه إلى تقديم فيلم تاريخي ملوَّن، غير أنَّها لم تستطيع الاستمرار في الإنتاج لارتفاع التكاليف ولم يحقِّق الفيلم حين عرضه في سينما النصر النجاح المطلوب، بعكس فيلم فتنة وحسن الذي حقَّقَ نجاحًا جماهيريًّا كبيرًا في حينه.

كان حبيب الملاك رائدًا من الروَّاد الأوائل في تأسيس وإرساء دعائم العمل السينمائي والإنتاج السينمائي في العراق. وقد رحلَ عن عالمنا في عام 1976 حزينًا لما آلت إليه صناعة السينما في ظلِّ هيمنة الشمولية البغيضة وسطوتها المهلكة.

(يعدُّ العراقيون السيد حبيب الملاك المشجِّع الأوَّل للحركة السينمائية هناك، فحينما أُنتج أوَّل فلم في بغداد وحاول منتجوه عرضه تهرَّب أصحاب الصالات، فما كان من السيد

حبيب الملاك إلَّا أن فتح لهم صالاته وقال بالحرف الواحد إنَّ هذه الصالة إنَّما وُجدت لكم ومن أجلكم فافعلوا ما شئتم طالما أنَّ هناك مصلحة لهذا البلد...). عن مجلة السينما والعجايب اللبنانية في عددها الخاص عام 1960 .[12]

(12) نشرت في جريدة الأخبار البصرية في العدد (87) بتاريخ 7/أيار/2005

باسل محمد عبد الكريم . . .

بكالوريوس آداب اللغة العربية

والشريعة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة بغداد

1976 - 1975

هاتف: 07902721383

المحتويات

لفيفٌ من أصدقاء الفقيد (أبي ندى)